الفصل الثاني

الوحدة الموضوعية وعلم المناسبات

obeikandl.com

obeikandl.com

علم المناسبات وثيق الصلة بالوحدة الموضوعية؛وذلك لأننا نلاحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة، ثم توضع في سورة واحدة، وقد تكون بين الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة، والآيات التي وضعت عقبها مدة زمنية قصيرة لا تتعدى الأيام، وقد تكون مدة طويلة تتجاوز عدة سنوات ـ كما في سورة النساء في قوله تعالى:ـ

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ والآيات التي قبلها من(٥١ـ٥٨)،ولكننا عندما نقرؤها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها، والمقصد والغاية من سياقها، جميعها شيء واحد.[١].

وذكر المناسبات بين آيات السورة الواحدة، وهو تأكيد اتصال الآيات بعضها مع بعض في نطاق السورة الواحدة، أساس الدراسة في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، لأن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن مترتبة على معرفة الغرض، أو الأغراض التي سيقت لها السورة، لذا كان من المهم أن نلم بأطراف ما قيل في علم المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة.

والحقيقة أنّ فكرة المناسبة بين آيات السورة.٠هي الباعث الذي يحرك الآخذين بالتفسير الموضوعي.[٢]

وما أجمل قول الشيخ محمد عبد الله دراز في هذا الصدد:ـ" إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائمًا على

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي ـ مصطفى مسلم ـ (٥٧)

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ـ مصطفى ناصف ـ دار القلم ـ مصر ـ١٩٦٥م ـ (١٦٣ـ١٦٤)

قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضًا فلم تلبث كل لبنة من أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة.[1]

المبحث الأول :ـ مفهوم علم المناسبات

علم المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور بعضها مع بعض علم عظيم وشريف، ومن خلال هذا المبحث سنتعرف إلى مفهوم علم المناسبات في اللغة، وفي الاصطلاح اللغوي.

المطلب الأول :ـ علم المناسبة في اللغة:ـ

وهذا يتطلب منا تعريف العلم والمناسبة لغة:ـ

العلم في اللغة:ـ نقيض الجهل علم علمًا وعلم هو نفسه ورجل عالم وعليم من قوم علماء فيهما جميعًا[2]، وعَلِمهُ كَسَمِعَهُ، عِلْمًا، بالكسر:ـ عَرَفَهُ وعَلِمَ هو في نفسه، ورجل عالم، وعَلِيْم، جمع:ـ علماء وعُلَّام[3].

المناسبة في اللغة:ـ النِّسْب:ـ محركة، والنِّسْبة بالكسر والضم القرابة، أوفي الآباء خاصة، واستنسب ـ ذكر نسبه، والنسيب:ـ المناسب[4].

المطلب الثَّاني :ـ تعريف علم المناسبة في الاصطلاح اللغوي:ـ

المناسبةُ عِندَ الأصوليينَ:ـ أن يكون بين الوصف والحكم ملاءمة بحيث يترتب على تشريع الحكم عنده تحقيق مصلحة مقصود الشارع من جلب منفعة أو دفع مفسدة عنهم[5].

---

(١) النبأ العظيم ـ محمد عبد الله دراز ـ (١٥٤ ـ١٥٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ـ تحقيق عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ ٢٠٠٠م ـ بيروت ـ (٢/ ١٧٤).

(٣) القاموس المحيط ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ مادة علم ـ (١٠٥١).

(٤) نفس المرجع ـ مادة نسب ـ (١٤٠).

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس ـ محب الدين مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي ـ حققه علي شيري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م ـ١٤١٤هـ ـ مادة (نسب) ـ مثل الإسكار فإنه وصف ملائم

obeikandl.com

ويمكن تعريفها:ـ بأنه وَجهُ الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ـ أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، وبين السورة والسورة[1].

والمناسبة:ـ هي الرابطةُ بَينَ شيئينِ بأيِّ وَجهٍ من الوجوهِ، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وبما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وبما بعدها[2].

المبحث الثاني:ـ ظهور علم المناسبات وأهميته وأهم المؤلفات فيه:ـ

علم المناسبات بين سور القرآن الكريم، أو بين الآيات في السورة الواحدة من العلوم الدقيقة، التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوق لنظم القرآن الكريم وبيانه المعجز، وإلى معايشة جو التنزيل، وكثيرًا ما تأتي إلى ذهن المفسر على شكل إشراقات فكرية أو روحية.

ومن خلال هذا المبحث سوف نبين كيف ظهر علم المناسبات؟، وأهميته، وأهم المؤلفات في هذا العلم[3].

المطلب الأول:ـ ظهور علم المناسبات:ـ

أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي:ـ إذا قرئ عليه الآية أو السورة:ـ

لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه الآية ؟

وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة [4]؟

لتحريم الخمر سائلًا أو بلون كذا أو بطعم كذا، وإن الإسكار هو الوصف المناسب للتحريم من غيره، انظر أصول الفقه الإسلامي ـ.وهبة الزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ (١/ ٦٧٦ـ ٦٧٧).

(١) مباحث في التفسير الموضوعي ـ مصطفى مسلم ـ (٥٨).

(٢) مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢٩ـ ١٤٢٦هـ ـ ١٩٩٦م ـ (٩٧).

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي ـ مصطفى مسلم ـ (٥٨).

(٤) الإتقان في علوم القرآن ـ للسيوطي ـ بيروت ـ لبنان ـ دار الندوة الجديدة ـ (٢/ ١٠٨).

obeikandi.com

المطلب الثاني: أهمية علم المناسبات

لعلم المناسبات بين سور القرآن وبين الآيات في السورة الواحدة أهمية عظيمة، وتظهر أهمية من خلال الآتي:ـ

أولا:ـ في جعل أجزاء الكلام آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء[1].

ثانيًا:ـ عَدَّ بعض المفسرين أن نسبة هذا العلم من علم التفسير مثل نسبة علم البيان من علم النحو[2].

ثالثًا:ـ علم المناسبة نعرف به علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال[3].

رابعًا:ـ بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:ـ

أحدهما:ـ نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني:ـ نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.[4]"

خامسًا:ـ علم المناسبات علم أودعت فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه، وهو أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[5].

سادسًا:ـ معرفة المناسبات بين الآيات تساعد على حسن التأويل، ودقة الفهم، واتساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه[6] ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ هود: ١

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ دار القلم ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ ـ (١/ ٦٢).
(٢) نظم الدرر ـ البقاعي ـ (١/ ٦).
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي ـ مصطفى مسلم ـ (٥٨).
(٤) نظم الدرر ـ البقاعي ـ (١/ ١١).
(٥) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ (١/ ٦١).
(٦) مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ (٩٧).

obeikandl.com

من المهتمين بعلم المناسبة في تفاسيرهم، بل وأكثر من أورد المناسبات بين الآيات، الإمام فخر الدين الرازي ت سنة ٦٠٦هـ، في تفسيره الكبير المسمى "مفاتيح الغيب ".

وكان من الذين اهتموا بعلم المناسبات أيضًا أبو بكر بن العربي المالكي[١] ت سنة ٥٤٣هـ فنجده يذكر المناسبات من خلال تفسيره "أحكام القرآن"

وقد أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير[٢] في كتاب سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن " والإمام الزركشي ت سنة ٧٩٤هـ خصص له في كتابه "البرهان في علوم القرآن " فصلًا خاصًا تحت عنوان " النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات " تحدث فيه عن أهمية هذا العلم، وضرب أمثلة على المناسبات بين السور، وبين الآيات في السورة الواحدة، وذكر فيه أنواع الروابط بين الآيات والسور، ومن أوسع المراجع في هذا العلم كتاب" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للشيخ برهان الدين البقاعي ت سنة ٨٨٥هـ، حيث ذكر المناسبات بين آيات القرآن الكريم سورة سورة، ويقع كتابه في اثنين وعشرين جزءًا. ومن الذين خَصُّوا هذا العلم بالتأليف الإمام جلال الدين السيوطي ت سنة ٩١١هـ في كتابه " أسرار التنزيل " ثم لَخَّصَ منه مناسبة السور خاصة في كتاب آخر سماه "تناسق الدرر في تناسب السور. "

كما وخَصَّه بالبحث أيضًا في كتابه "الإتقان في علوم القرآن " في النوع الثاني

---

(١) هو:ـ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور، ولدفي أشبيلية وقيل ولادته سنة ٤٦٨هـ، وتوفى بالعدوة ودفن في مدينة فاس في شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ وله مصنفات منها:ـ " كتاب عارضة الأحوذي شرح الترمذي، " ـ ينظر:ـ وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦ـ ٢٩٧ـ وتهذيب سير أعلام النبلاء:ـ تصنيف ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢ـ ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م ـ (٣/ ١٤).

(٢) هو:ـ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، أبو جعفر:ـ محدث ومؤرخ، من أبناء العرب الداخلين في الأندلس، ولد في جَيَّان سنة (٦٢٧هـ) ت سنة ٧٠٨هـ في غرناطة ومن مؤلفاته:ـ "صلة الصلة ـ البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن ـ معجم أسماء شيوخه " وغير ذلك.
البدر الطالع (١/ ٢٣)، وشذرات الذهب (٦/ ١٦).

والستين تحت عنوان " في مناسبة الآيات والسور " ذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في البرهان، وزاد عليه كثيرًا من الأمثلة.

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا في علم المناسبات عبد الله محمد الصديق الغماري كتب كتابًا سماه "جواهر البيان في تناسب سور القرآن " ذكر فيه وجه المناسبة بين سور القرآن سورة سورة.

كما تحدث محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم " عن المناسبات بين آيات سورة البقرة.

وبهذا العرض الموجز تعرفنا إلى بعض العلماء الذين ألفوا في علم المناسبات.

المبحث الثالث: أراء العلماء في علم المناسبة في القرآن الكريم:

القول بالتناسب بين آيات القرآن الحكيم وارتباط بعضها ببعض، سمة بارزة عند بعض المفسرين، فعلم المناسبة أساس متين، ومن الخصائص البارزة في تفاسيرهم.

فقد ذهبت طائفة من المفسرين إلى إظهار علم المناسبة في التفسير، وقدمته على علم أسباب النزول...، ولعلهم بلغوا ذروة التحقيق العلمي حين أوجبوا البدء بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفًا على معرفة أسباب النزول[1].

بينما ذهبت طائفة أخرى من المفسرين إلى أن البحث عن أوجه المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور المتعددة، تكلف تأباه طبيعة نزول القرآن منجمًا، ووصفوا الذين حاولوا إظهار هذا العلم بأنهم استغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل وصفوا من يبحث في هذا العلم بأنه يتكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه.

ومن خلال المبحث الآتي سوف نعرض آراء العلماء في علم المناسبات وأدلة كلّ من الفريقين.

---

(١) مباحث في علوم القرآن ـ صبحي الصالح ـ دار العلم ـ بيروت ـ لبنان ـ(١٥٠ـ١٥١).

obeikandl.com

المطلب الأول: المنكرون لعلم المناسبات:ـ

قلَّ اعتناء بعض المفسرين بهذا النوع لدقته، وتركه آخرون، بل إن بعضهم أنكر هذا العلم، وعدوا ذلك من التكلف في كتاب الله العزيز، ومالوا إلى نفي علم المناسبة في السور القرآنية وعابوا على من يلتمس في تفسيره بيان وجه ارتباط الآي بعضها ببعض، ولعلَّ أقدم من رفع صوته مستنكرًا لهذا الأمر سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام[1] ت سنة ٦٦٠هـ حيث قال " المناسبة علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلًا عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة غير مؤتلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك،لا يتأتى ربط بعضه ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرف الملوك، والحكام، والمفتين، وتصرف الإنسان مع نفسه بأمور متوافقة، ومتخالفة، ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها، واختلاف أوقاتها[2].

ومن المنكرين لعلم المناسبة أيضًا الإمام الشوكاني[3] في تفسيره "فتح القدير

---

(١) هو:ـ عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن شيخ الإسلام ولد سنة ٥٧٨هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ، وأهم مصنفاته "اختصر "نهاية المطلب وله القواعد الكبرى ـ والقواعد الصغرى ـ مقاصد الرعاية " انظر فوت الوفيات والذيل عليها (٢/ ٣٥٠ـ٣٥٢).

(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز ـ العز بن عبد السلام ـ دار البشائر الإسلامية ـ ط ١ ـ ١٩٨٧م ـ (٢٢١).

(٣) هو:ـ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء.ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) ونشأ بصنعاء.وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ومات حاكمًا بها.وكان يرى تحريم التقليد. له ١١٤ مؤلفا، منها (نيل الاوطار من أسرار منتقى الأخبار) ثمانية مجلدات، و(البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) مجلدان، و(الأبحاث العرضية، وفي الكلام على حديث حب الدنيا رأس كل خطية) كان في المكتبة العربية، ولعله آل إلى الظاهرية في دمشق.و (إتحاف الأكابر) وهو ثبت مروياته عن شيوخه، مرتب على حروف الهجاء، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) و(التعقبات على الموضوعات) و(الدرر البهية في المسائل الفقهية) جزآن و(فتح القدير) في التفسير، خمسة مجلدات، و(إرشاد الفحول) في أصول الفقه، و(السيل الجرار)، في نقد كتاب الأزهار،، وغير ذلك ـ
ينظر:ـ الأعلام للزر كلي: (٦/ ٢٦٨)..

"حيث يقول:ـ" اعلم أنَّ كثيرًا من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا ـ سباحته، استغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلًا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف... [1]

ثم يقول:ـ وإِنَّ هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن مازال ينزل مفرقًا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ بداية الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن قبضه الله عزّ َو جلَّ إليه.

وكل عاقل فضلًا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالًا، وتحليل أمر كان حرامًا... وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يَتَيَسَّرُ معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها باعتبار نفسه مختلف كاختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين العنب والتوت وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور[2]؟

وقال في آخر حديثه:ـ "ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحاتها كثير من المحققين[3].

وهكذا عرضنا وجهة نظر بعض النافين لهذا العلم وحججهم وردودهم على القائلين بوجود المناسبات بين الآيات والسور.

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ـ محمد بن علي الشوكاني ـ اعتنى به وراجع أصوله يوسف العوش ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط ١ ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٤م (٥٠).

(٢) نفس المرجع (٥٠).

(٣) نفس المرجع (٥٢).

obeikandl.com

المطلب الثاني: المجيزون لعلم المناسبات:

كان من الذين قالوا بترابط آيات السورة القرآنية وتناسقها عدد من العلماء نذكر منهم:-الإمام الشاطبي رحمة الله تعالى حيث قال في كتابة الموافقات:-" غير أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدًا بكل اعتبار ومعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت،وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعددًا في الاعتبار بمعني أنه أنزل في قضايا متعددة كسورة البقرة، آل عمران، والنساء، واقرأ باسم ربك وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكاملها دفعة واحدة، أم نزلت شيئًا بعد شيء. ولكن هذا القسم له اعتباران، وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجهٍ ظاهر، وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز، وبعض مسائل نبه عليها في المسألة السابقة، وجميع ذلك لابد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار جهة النظم – مثلًا- في السورة لا يتم بة فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها ...[1]

كذلك ذهب الشيخ ولي الدين الملوي إلى القول بتناسب الآيات والسور، حيث يقول:ـ((قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له...))[2]

ومن الذين قالوا بالتناسب بين آيات السورة القرآنية والتناسب بين السور:-

الشيخ ابن العربي في"سراج المريدين":- كما أورد الزركشي في برهانه والسيوطي

---

(١) الموافقات ـ للإمام الشاطبي ـ (٤/ ٤١٤-٤١٥).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ـ للسيوطي ـ (٢/ ١٠٨).

في إتقانه وذلك قوله:" ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد. "[1]

ومن المهتمين بعلم المناسبات بين الآيات بل المكثرين في هذا العلم الشيخ البقاعي حيث يوضح أهمية علم المناسبة في" نظم الدرر" بقوله:ـ وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين:- أحدهما:- نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني:- نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

والأول أقرب تناولًا وأسهل ذوقًا، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه،وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره.

وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز.

ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية القصد فظن أنها متنافرة فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه ـ عافانا الله تعالى ـ... فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج بإمعان التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من أحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى... فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار. رقص الفكر منه طربًا وشكر الله استغرابًا وعجبًا، وشاط لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانه... إلى آخره. "[2]

ومن المجيزين لعلم المناسبة بل وأكثر من إيراد التناسب في السورة، والترابط بين الآيات في تفسيره الإمام فخر الدين الرازي ت سنه ٦٠٦ هـ حيث قال عند تفسيره لسورة البقرة:ـ" ومن تأمل في لطائف نظم هذا السورة وفي بدائع ترتيبها،

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٦)ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ١٠٨).
(٢) نظم الدررـ للبقاعي ـ (١/ ١١-١٢).

علم أنّ القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعلَّ الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا إني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:-

والنجم تستصغر الأبصار صورتــه والذنب للطرف لا للنجم في الصغر [1]

ومن المجيزين لعلم المناسبة أيضًا الزرقاني رحمه الله حيث يقول:- "إن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض، في سوره وآياته وجمله،يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة،ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه سمط[2] وحيد وعقد فريد، يأخذ بالأبصار نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخرة" [3]

الراجح:-

بعد هذا العرض للمثبتين وجود التناسب بين سور القرآن الكريم، والمنكرين لذلك تؤيد الباحثة رأي المثبتين لوجود التناسب بين سور القرآن المجيد، فسور القرآن كلها مترابطة فيما بينها برباط وثيق، ومناسبة لطيفة يدركها المتدبرون. [4]

فالمتدبر للقرآن الكريم المتعمق في فهم معانيه يلحظ ذلك بجلاء. والقول بوجود المناسبات أمر يحتمه الاعتقاد بتنزيه كلام الله سبحانه وتعالى عن الفوضى والتناقص:-

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء: ٨٢ .

---

(١) الإتقان في علون القرآن ـللسيوطي ـ (١/ ١٠٨).

(٢) قال الرازي في مختار الصحاح: "السمط الخيط مادام فيه الخرز وإلا فهو سلك، وقال الفيومي في المصباح المنير "السمط الخيط مادام فيه الخرز وإلا فهو سلك ".

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ـ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ (١/ ٥٣).

(٤) الموسوعة القرآنية المتخصصة - إشراف وتقديم أ.د.محمود حميد زقزوق –القاهرة ـ ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

فنحن نسلم أن القرآن قد أنزل في فترات متباعدة خلال ثلاثة وعشرين عامًا مدة نزول الوحي على رسول الله صلى عليه وسلم.ونؤمن إيمانًا جازمًا بأن ترتيب الآيات في السور كان بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتبة الوحي، ولم يكن لأحد رأي واجتهاد في ذلك.

يقول محمد رشيد رضا في ذلك:ـ "ومن نظر في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة، ومن حكمته أَنَّ في ذلك عونًا على تلاوته وحفظه... ولكن في كل قسم من الطول والمئين والمفصل تقد يمًا لسورة قصيرة على سورة أطول منها، ومن حكمة ذلك أنه قد روعي التناسب في معاني السور مع التناسب في السور، أي مقدر الطول والقصر.[1]

ويذكر مصطفى مسلم:ـ أن بعض العلماء الباحثين في وجوه المناسبات، قد تكلفوا أحيانًا في استخراج وجه لمناسبة، ولكن تكلفهم لا يكونه ذريعة لرد الوجوه المعقولة المقبولة التي ذكرها الآخرون. [2]

وعلى الباحث إن يبذل قصارى جهده للتعرف إلى وجه المناسبة بين الآيات،فإن ظهر له شيء من ذلك، فذلك نعمة من الله وفضل عليه، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله تعالى، وإن خفي عليه

وجه المناسبة فعليه إن يمسك ولا يتكلف، وينسب علم ما خفي عليه إلى منزل الكتاب،الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل، ولا يدرك أسرار كتاب الله كلها أحد من البشر.[3]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾الفرقان: ٦.

المبحث الرابع:- ترتيب السور ومذاهب العلماء فيه:

إن القول بوجود المناسبات بين السور يعتمد على أن ترتيب السور توقيفي لااجتهادي وسوف نبين كيف تم جمع القرآن الكريم ومذاهب العلماء في ترتيب القرآن:ـ

---

(١) تفسير المنار- محمد رشيد رضا ـ (٨/ ٢٨٧)

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي – مصطفى مسلم –(٦٥)

(٣) نفس المرجع ـ (٦٦)

المطلب الأول: جمع القرآن الكريم:

عندما كان الوحي ينزل بالآيات القرآنية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يأمر بكتابتها، فيتسابق المسلمون من أجل حفظها وكتابتها والتعبد بتلاوتها ونشرها بين الناس، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب يكتبون له الوحي حتى اكتمل نزول القرآن وكتبه المسلمون في المصحف[1]،وكان هذا التدوين في صحف متنوعة من العسب واللخاف وعظام الأكتاف وما إلى ذلك مما يصلح للكتابة فيه.[2] وبذلك كان القرآن مكتوبًا كله على عهد النبي، وكانت كتابته مُلحوظًا فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها غير أنَّ بعض الصحابة كان قد كتب منسوخ التلاوة وبعض ما هو ثابت، بخبر الواحد، وربما كتبه غير مرتب، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعًا في صحف ولا مصاحف عامة.[3]

قال الحاكم[4] في المستدرك جمع القرآن ثلاث مرات:-

إحداها... بحضرة النبي صلى الله علية وسلم ثم أخرج بسند على شرط الشيخين.

" عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله علية وسلم نؤلف القرآن من الرقاع" [5].

---

(١) بيانات الرسول ومعجزاته ـ للشيخ عبد المجيد الزنداني ـ طبعه وقفية ـ ط٦ـ ١٤٢٩هـ ـ٢٠٠٨م ـ (٢٢٩)

(٢) إعجاز القرآن وعلم المعاني ـ د. عمر الملا حويش ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط١ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م ـ (٦٨)

(٣) القرآن الكريم تاريخه وآدابه ـ إبراهيم علي عمر ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط١ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م (٤١)-

(٤) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن حميد بن النعيم بن الحكيم الإمام الحافظ الناقد العلامة شيخ المحدثين أبو عبد الله بن النبيع المهدي الطهماني النيسابوزي الشافعي صاحب التصانيف، ومولدة في سنة ٣٢١ هـ. بنيسابور سمع من حوالي الفي شيخ ينقصون او يزيدون، ت سنة ٤٠٥هـ.
ينظر:ـ تهذبت سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١)

(٥) مسند أحمد بن حنبل ـ أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م ـ (٥/ ١٨٤) ـ صحيح ابن حبان ـ محمد بن حبان ـ ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ، بيروت ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ (١/ ٢٣٠) ـ مستدرك =

ونؤلف القرآن يقصد بها هنا بمعنى الترتيب والجمع، والتأليف لا يكون إلا بين الأشياء المتجانسة المتقاربة[1]، أو جمع آيات السورة الواحدة، أو جمع السور مرتبة في المصحف [2]، والترتيب:ـ التأليف

،فليس المراد به مطلق الكتابة، وإنما المراد به الكتابة على وجه معين مقصود بذاته يتحقق فيه معنى الترتيب. [3]

الثانية... أول جمع للقرآن في مصحف واحد كان في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وكان بحضرة أبي بكر رضي الله عنه روى البخاري[4] في صحيحه عن زيد بن ثابت[5] قال:أرسل إليّ أبوبكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال: أبو بكر إنّ عُمَرَ أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله علية وسلم؟

قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

= الحاكم ـ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ـ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٤١هـ ـ ١٩٩٠م ـ (٢/ ٢٤٩) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(١) لطائف قرآنيه ـ صلاح الخالدي ـ دار القرآن ـ دمشق ـ ط١ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ (١٢٤)

(٢) فضائل القرآن ـ للإمام أحمد بن حجر العسقلاني ـ مراجعة وشرح وتقديم:ـ السيد الجميلي ـ دار الهلال ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ ١٩٨٦م ـ (٨٦)

(٣) التبيان في علوم القرآن ـ القصبي محمود زلط ـ دار الأنصار بالقاهرة ـ ط١ـ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م (٦٣)

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم، الحافظ المحدث العلم صاحب الصحيح وإمام هذا الشأن، ت سنة ٢٥٦هـ.(تهذيب التهذيب ـ للإمام شهب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدرأباد ـالهند ـ بدون تاريخ ـ (٤/ ١٦٨) ـ طبقات الحفاظ ـ للسيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط ١ ـ ١٤٠٣هـ ـ (١٢٥٢)

(٥) هو:ـ زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان الأنصاري أبو سعيد، قدم المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة، وكان يكتب الوحي، قال مسروق: كان من الراسخين في العلم، توفى سنة ٤٥هـ وقيل بعد الخمسين.(الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار الجبل بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ ١٤٢١هـ ـ ١٩٩٢م ـ (٢/ ٥٩٢). ينظر:ـ تهذيب التهذيب ـ لابن حجر ـ (٣/ ٣٤٤)

قال: زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآنَ اجمعه. فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره " لقد جاءكم رسول حتى خاتمة براءة.[1]

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر.

الثالثة... أما الجمع الثاني للقرآن الكريم فهو ترتيب السور في زمن عثمان رضي الله عنه، روى البخاري عن أنس[2] أَنَّ حذيفة بن اليمان[3] قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القرآن، وقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة:-

"إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه

---

(١) صحيح البخاري / باب جمع القرآن – رقم (٤٩٨٦) ص(٩٢٠)

(٢) هو:ـ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الخزرجي أبو حمزة، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزيل البصرة، ت سنة ٢٩هـ، وقيل ٩٣هـ (ينظر:الإصابة ـ لابن حجر ـ (١/ ١٢٦) و:ـ تهذيب التهذيب ـ له ـ (١/ ٣٢٩)

(٣) هو:ـ حذيفة بن اليمان واسم اليمان حسيل ويقال حسيل بن جابر العيسي، أسلم هو وأبوه، ولم يشهد بدرًا لأن المشركين أخذا عليهما عهدًا ألا يشهداها وشهدا ما بعدها، ت سنة ٣٦هـ. (ينظر:ـ الإصابة لابن حجر ـ٢/ ٤٤ـ و:ـ تهذيب التهذيب ـ له ـ ٢/ ١٩٣)

إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا،وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال زيد:ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسنا ها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [1] فألحقناه في سورتها في المصحف[2].

ولكن هل ترتيب القرآن الذي جمعوه كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم أم كان اجتهادًا من الصحابة رضي الله عنهم ؟ هذا ما سيتم توضيحه في المطلب القادم ـ بعون الله تعالى ـ..

المطلب الثاني:- ترتيب سور القرآن اجتهاد من الصحابة والأدلة على ذلك:-

ذهب بعض من العلماء إلى القول بأن ترتيب سور القرآن الكريم اجتهاد من الصحابة، منهم:-

مالك[3] والقاضي أبو بكر بن الطيب – فيما اعتمده واستقر عليه رأيه من أحد قوليه – أنه صلى الله عليه وسلم فوض ذلك إلى أمته بعده. وذلك لأن القائل بذلك يقول:- إنه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته. ولذا قال الإمام مالك:ـ إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم[4].

---

(١) سورة الأحزاب آية:٢٣

(٢) صحيح البخاري ـ باب جمع القرآن ـ (٤٩٨٧) ـ (٩٢٠)

(٣) هو الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس [ابن مالك] بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن غيمان – بغين معجمة وياء تحتها نقطتان – ويقال عثمان – بعين مهمله وثاء مثلثه – ابن جثيل – بجيم وثاء مثلثة وياء ساكنة تحتها نقطتان – وقال ابن سعد هو خثيل بخاء معجمة، ابن عمر وابن ذي أصبح الأصبحي المدني إمام دار الهجره وأحد ألائمة الأعلام – أخذ القراءة عرضًا عن نافع بن أبي النعيم، وسمع الزهري ونافعًا مولى ابن عمر رضي الله عنهما. وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع (٤/ ١٣٥ – ٣٨) ينظر:ـ وفيات الأعيان (٤/ ١٣٥ـ ١٣٨).

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ (٣٢٥)

وأما أدلتهم على أن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة فهي:-

ـ إن مصاحف بعض الصحابة لم تكن مرتبه ترتيب مصحف عثمان رضي الله عنه، فمصحف علي رضي الله عنه كان أوله:-

أقرأ ثم المدثر ثم (ن) ثم المزمل ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني، أي: كان مرتبًا حسب زمن

النزول، ومصحف ابن مسعود كان أوله البقرة ثم النساء ثم آل عمران.[1]

لذلك قال القاضي أبو بكر بن الطيب:- فإن قيل:- قد اختلف السلف في ترتيب القرآن، فمنهم من كتب في المصحف السور على تاريخ نزولها، وقدم المكي على المدني.

ومنهم من جعل من أوله:- ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[2] وهو أول مصحف عليّ، وأما مصحف ابن مسعود فأوله:- ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[3] ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف ثم

المائدة، على اختلاف شديد.

فالجواب:- أنه يحتمل إن يكون ترتيب السور على ماهي عليه اليوم على وجه الاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم.[4]

ومن الذين أكدوا على أن ترتيب السور في القرآن اجتهاد من الصحابة:-

أبو الحسين أحمد بن فارس[5] في كتاب ((المسائل الخمس)) إذ ذكر أنَّ جمع القرآن على ضربين:-

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي – مصطفى مسلم – (٧٨)

(٢) سوره العلق آية: ١

(٣) الفاتحة آية:٤

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ـ (١/ ٣٢٨)

(٥) هو:ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي، كان إمامًا في علوم شتى وخصوصًا في اللغة فإنه أتقنها، من مؤلفاته المجمل ـ حلية الفقهاء، له أشعار كثيرة، ت ٣٩٥هـ. ينظر:ـ وفيات الأعيان ـ (١/ ١١٨ـ١١٩)

obeikandl.com

أحدهما:- تأليف السور، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها إلى بعض.فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة رضوان الله عليهم.

وأما الجمع الآخر:- فضم الآي بعضها إلى بعض، وتعقيب القصة بالقصة، فذلك شيء تولاه رسول

الله صلى الله عليه وسلم، كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل.[1] كما أنهم استدلوا على أن ترتيب سور القرآن اجتهاد من الصحابة:-

بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:-قلت لعثمان بن عفان:((ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا – قال ابن جعفر – بينهما سطرًا بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك؟))

قال عثمان رضي الله عنه:- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول:-((ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)) وينزل عليه الآية فيقول:- ضعوا هذه السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وينزل عليه الآية فيقول:- ((ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)) وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن.

فكانت قصتها شبيهة بقصتها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، وظننت أنها منها، فمن ثَمَّ قَرَنْتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطرًا "بسم الله الرحمن الرحيم "قال ابن جعفر ووضعتها في السبع الطوال)).[2]

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ (١/ ٣٢٨) ـ الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ (١/ ٦٢).

(٢) ينظر:ـ مسند الإمام أحمد ـ (١/ ٥٧) ـ السنن الكبرى ـ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ دار النشر مجهولة ـ (٢/ ٤٢) ـ المعجم الأوسط ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق: طارق بن عوض الحسني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ـ ١٤١٥هـ (٧/ ٣٣٨) ولقد علق شعيب الأرناؤوط بقوله:ـ إسناده ضعيف.

المطلب الثالث :- ترتيب السور توقيفي والأدلة على ذلك:

ذهب الجمهور إلى أن ترتيب السور في المصحف توقيفي من الرسول صلى الله عليه وسلم واستدلوا على ذلك بالأدلة الآتية:ـ

ـ حديث زيد ((كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع))[1].

ـ ما رواه أحمد[2] وأبو داود[3] عن أوس بن أوس عن حذيفة الثقفي قال:((كنت في الوفد الذين اسلموا من ثقيف.... الحديث، وفيه قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:)) ((طرأ علي حزبي من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه))فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم.))[4]

ـ قول عبد الله بن مسعود[5] في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء:" إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي.[6]").

---

(١) سبق تخريجه في صفحة (٣٩)

(٢) هو:ـأحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، الإمام الشهير، كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة، له المسند يحتوي على ما يقارب ثلاثين ألف حديث، توفى ستة ٢٤١هـ. (ينظر:ـ تهذيب التهذيب لابن حجر:١/ ٦٢، ـو طبقات الحفاظ ـ للسيوطي ـ١/ ١٨٩)

(٣) هو:ـ أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو الأزدي، الإمام العلم، صاحب كتاب السنن، توفى سنة ٢٧٥هـ.
(ينظر:ـ تهذيب التهذيب ـ لابن حجر:٤/ ١٤٩ـو طبقات الحفاظ ـ للسيوطي ـ ١/ ٢٦٥)

(٤) المسند ٤/ ٩، مختصر سنن أبي داوود، كتاب رمضان (٢/ ١١٤) ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ـ دار المعرفة - بيروت ـ تاريخ ١٣٧٩ـ (٩/ ٤٢)

(٥) هو:ـ عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ، أبو عبد الرحمن الهذلي، أحد السابقين والبدريين والعلماء الكبار من الصحابة، مناقبه جمة، أَمَّرَهُ عمر على الكوفة، توفى سنة ٣٢هـ (ينظر:ـ الإصابة لابن حجر:٤/ ٢٣٣، ـ وله تهذيب التهذيب ٦/ ٢٤)

(٦) أراد بالعتاق الأول السور التي أنزلت أولًا بمكة، وأنها من أول ما تعلمه من القرآن. النهاية في غريب الحديث والأثر لحميد الدين المبارك محمد الجزري المعروف بابن الأثير ـ ط دار الفكر ـ بيروت (٣/ ١٧٩).

أما العلماء الذين قالوا إن ترتيب السور توقيفي فمنهم:ـ

ـ قال أبو جعفر النحاس[1]: المختار أن ترتيب السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله علية وسلم، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب ثم ساق بإسناده إلى أبي داوود الطيالسي: حدثنا عمران ابن القطان عن قتادة عن أبي المليح الهذلي عن واثلة بن الأسقع[2] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال، وأُعطيتُ مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلتُ بالمفصل.))[3].

ثم قال أبو جعفر: – وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله علية وسلم، وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله صلى الله علية وسلم على تأليف القرآن.بمعنى الجمع والترتيب.

---

(١) هو:ـ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس، النحوي المصري، كان من الفضلاء، وله تصانيف مفيدة منها:ـ (تفسير القرآن ـ إعراب القرآن ـ الناسخ والمنسوخ ـ.....) ت ٣٣٨هـ ينظر:ـ وفيات الأعيان (١/ ٩٩ـ١٠٠)

(٢) واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر بن بشر بن بكر، ويقال: ابن الأسقع بن عبد الله بن عبد ياليل بن ناشب بن عنزة بن سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناف الليثي. من بني كنانة، نزل الشام. ويقال: أسلم والنبي صلى الله عليه وسلم يتجه إلى تبوك. وهو من أهل الصفة، وقيل: إنه خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين. دخل البصرة وله بها دار. وعاش ١٠٥ سنين، وقيل: ٩٨ وهو آخر الصحابة موتًا في دمشق.له ٧٦ حديثًاووفاته بالقدس أو بدمشق (١).ـ فتح الباب في الكنى والألقاب ـ للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني ـ تحقيق أبي قتيبة نضر محمد الفاريابي ـ الناشر مكتبة الكوثر ـ ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م(١/ ١٠٠) الأعلام للزر كلي (٨/ ١٠٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ المؤلف: ابن عبد البر ـ مصدر الكتاب: موقع الوراقhttp://www.alwarraq.com(١/ ٤٩٦) الإصابة في تمييز الصحابةـ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ـدار الجيل – بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤١٢ـ تحقيق: علي محمد البجاوي (١/ ٥٨)

(٣) مسند أبي داود الطيالسي ـ سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي ـ دار المعرفة ـ بيروت (١/ ١٣٦) ـ مسند أحمد بن حنبل ـ أحمد بن حنبل ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة ـ (٢٨/ ١٨٨) ـ المعجم الكبيرـ سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ سوريا ـ ١٤٠٤هـ ـ (٢٢/ ٧٥)

ـ الإمام مكي[1] حيث قال: ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة.

قال الكرماني[2] في البرهان:

ترتيب السور هكذا هو عند الله وفي اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب كان يعرض عليه السلام على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرض عليه السنة التي توفي فيها مرتين.[3]

وقال ابنُ الحَصَّارِ[4]:- ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها، إنما كان بالوحي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: - ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة الرسول صلى الله علية وسلم، مما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف[5].

المطلب الرابع: القول الراجح

لو نظرنا في المذهبين لو جدنا أن الخلاف يرجع إلى اللفظ، لأن القائل بأنه اجتهادي يقول:- إنه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب النزول، ومواقع كلماته،فآل الخلاف إلى أنه:- هل ذلك بتوقيف قولي، أم بمجرد استناد فعلي، وبحيث بقي لهم فيه مجال للنظر.[6]

---

(١) هو:ـ أبو محمد مكي بن أبي طالب بن حموش بن مختار القيسي المقرىء، أصله من القيروان، وانتقل إلى الأندلس، وسكن قرطبة، وهو من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، له تصانيف كثيرة منها:ـ (الهداية إلى بلوغ النهاية ـ الموجز في القراءات..... توفى يوم السبت ٤٣٧هـ بقرطبة ودفن في الرّبض.
ينظر:ـ تهذيب سير أعلام النبلاء ـ (٢/ ٣٣١).

(٢) هو:ـ شيخ الحنفية، مفتي خراسان، أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن أميرويه بن محمد الكرماني، وروى عن أبيه، أبي الفتح عبد الله بن أردشير، سمع منه السمعاني، وبالغ في وصفه، وقيل ولد سنة ٤٥٧هـ، ومات في ذي القعدة سنة ٥٤٣هـ. ينظر:ـ تهذيب سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥)

(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ـ تحقيق عبد القادر عطا ـ (٨٩).

(٤) هو:ـ الإمام أبو جعفر أحمد بن علي بن يحيى بن عون الله الدّاني ثم المرسيّ الحصّار، ولد في حدود سنة ٥٣٠هـ، وذكر أنه تلا على عبدالله بن سعيد، ورحل فتلا بالسبع على أبي الحسن بن هذيل، وسمع منه الكثير.. ينظر:ـ تهذيب سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧١)

(٥) ينظر:ـ الإتقان في علوم القرآن ـ. جلال الدين السيوطي ـ (١/ ٦١ـ ٦٢)

(٦) البرهان في علوم القرآن – الزركشي ـ (١/ ٣٢٥)

obeikandl.com

والراجح:-

إن ترتيب وضع السور في المصحف توقيفي صادر عن حكيم، وهناك دلائل من سياق ترتيب القرآن في المصحف تؤكد أن ترتيبه فيه ما كان إلا بالوحي، ولم يكن من صنع بشر، لأن تلك الاعتبارات المرعية في هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة في التفكير، ولا سمعنا أن اجتماعًا حدث بينهم لهذا الترتيب، اللهم إلا ماروي عن زيد بن ثابت قال:-

" كنا عند رسول الله صلى عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع....."[1]

ومادام هذا التأليف كان عند الرسول فما كان الرسول ناطقًاعن الهوى؛ لاسيما وقد صح أنه كان يرشد كتاب الوحي والحفاظ إلى مكان الآية من سورتها عقب نزولها.

ومن تلك الدلائل:-

١ـ قوله تعالى في سورة البقرة:- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ البقرة: ٢١

فالعبادة في الآية معناها:- التوحيد.وهو أول مايلزم العبد معرفته، والإيمان به، ولهذا كان أول خطاب خاطب الله به الناس جميعًا في أول سورة في القرآن، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نفس السورة:- ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠ ﴾ البقرة: ١٢٠

قال الكرماني:-وهو علم الكمال، أي: العلم بالله وأسمائه وصفاته، ولذلك عبر عنه بقوله "الذي".

وورود هذه الآية بهذا المعنى في أول سورة في المصحف مع أنها مدنية وليست مكية، دليل على أن هذا الترتيب توقيفي من الوحي، ويدل عليه قوله تعالى في سورة هود:-﴿ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ هود: ١٣

---

(١) سبق تخريجه في ص(٣٩)

obeikandl.com

وسورة هود مكية؛والمعنى:ـ فأتوا بعشر سور مثله، أي:ـ من البقرة إلى هود وهي العاشرة مع أن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة مدنيات نزلن بعدها.

فآية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول، باعتبار أن التحدي واقع على عشر سور من القرآن عامة غير محددة، ولكن ترتيب المصحف حدد العشر، وحدد أول ما يجب على العبد معرفته واعتقاده مثبتًا أول سورة من القرآن"[1]

٢- ومن دلائل الترتيب وأحكامه قولة تعالى في سورة البقرة:ـ ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ البقرة: ٣٤

ولقد جرت عادة القرآن في شأن العقيدة أن يجملها، ثم يفصلها في ما بعدها من الآيات، وهذا هو الثابت في ترتيب المصحف.

وإباء السجود من إبليس يعدُّ بيانًا للعقيدة عن طريق بيان موانع الإيمان بها. وقد جاءت تلك الموانع مجملة في قوله:" أَبَى ".ثم فصلت فيما بعدها من السور على ترتيب لا يخلو من الأسرار وأحكام الترتيب ففي سورة الحجر قال تعالى:-﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾الحجر: ٣١

وفيه بيان لموضع الإباء. وفي سورة الإسراء:ـ ﴿ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا ﴾ الإسراء: ٦١

وفية علة من علل الإباء وهي الكبر، مع تفصيل نتائجها، وأنها تصل بصاحبها إلى الكفر.فانتهى بما بدأ به من تقرير هذه القضية التي يقوم عليها الكفر في كل زمان[2].

٣- في معرض التحدي بالقرآن جاء في سورة البقرة الخطاب لمنكري نزول القرآن من عند الله ﴿ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣

---

(١) أسرار ترتيب القرآن – للحافظ جلال الدين السيوطي دراسة وتحقيق عبد القادر عطا ـ دار الاعتصام ـ بلا تاريخ ـ(٤٢)

(٢) أسرار ترتيب القرآن – للحافظ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق عبد القادر عطا ـ (٤٢)

obeikandl.com

ثم جاء في سوره يونس:- ﴿ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يونس: ٣٨

وكذلك جاء في سورة هود، وذلك لأن لما زاد في السور المُتَحَدى بها إلى عشر سور.زاد في المدعوين فقال:- مَنِ اسْتَطَعْتُم ". ولما كان التحدي في سورة البقرة بسورة واحدة قَلَّ عدد المدعوين، وانحصر في الشهداء وحدهم.

وقد مضى الترتيب مسايرًا للملابسات حتى سورة الإسراء، إذ وقع التحدي صراحة على جميع القرآن، فوجه الكلام إلى الجن والإنس جميعًا فقال تعالى:" ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء:٨٨

وبهذا ندرك تدرج التحدي من سورة إلى عشر سور، إلى القرآن كله، وملائمة القرآن بين القدر المتحدي به، ومقدار المدعوين إلى معارضتهٍ، في الترتيب دقيق محكم[1].

٤ـ كما أنهم استدلوا على أن ترتيب السور في المصحف توقيفي بأدلة من السنة منها:

أ- ما رواه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبي أوس عن حذيفة الثقفي قال: ((كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.....الحديث، وفيه فقال لنا رسول الله صل الله عليه وسلم:" طرأ علي حزبي من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه " فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا:" كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاثة عشرة وحزب المفصل من " ق " حتى نختم)[2] فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب- قال عبد الله بن مسعود، في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه

(١) أسرار ترتيب القرآن – للحافظ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق عبد القادر عطا ـ (٤٣)
- سبق تخريجه في ص(٤٤)
(٢) سبق تخريجه في ص(٤٤)

والأنبياء:(إنهن من العتاق الأُوَلِ وهن من تلادي)[1] أي: من قديم ما أنزل " وقد ذَكَرَ هُنَّ بالترتيب الوارد في المصحف.

٥- وقد ذكر الزركشي الأسباب الآتية التي تدل على أنَّ ترتيب القرآن توقيفي:

أ- بحسب الحروف كما في الحواميم.

ب ـ لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة.

ج - للوزن في اللفظ، كآخر" تبت" وأول "الإخلاص ".

د- لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل " والضحى "و"ألم نشرح.[2]

٦- كما أن الجمع بين السور المتشابهة في فواتحها مرة، والتفريق بينهما مرة أخرى يدل على أن ذلك لم يكن عن اجتهاد، فقد وردت السور المبدوءة بـ" حم "وتسمى آل حاميم أو الحواميم مجتمعه في مكان واحد، بينما فرقت المسبحات، وهي السور التي تبدأ بـ" سبح، يسبح، سبح، سبحان " والمنطق البشري يقتضي التوحيد في الجميع أو التفريق في الجميع[3].

٨ـ إجماع الأمة قاطبة على هذا الترتيب، وعلى حرمة مخالفته في كتابة المصاحف[4].

ومما يؤكد أن ترتيب القرآن في المصحف وآياته وسورة بتوقيف كثرة هذه الشواهد حتى تبلغ الآلاف المؤلفة، منثورة في مؤلفات العلماء،ومن البعيد جدًا أن يكون الرهط الذي كلفهم عثمان رضي الله عنه بجمع سور القرآن في المصحف، قد بحثوا عن هذه المناسبات، ثم رتبوا القرآن على أساسها، فكما قلنا هناك من المناسبات، ما يشتمل على تقسيمات وتفريعات لم تكن من ثقافة العصر، ولم يؤثر مثلها عن الصحابة ولم تظهر إلا بعد عصرهم.[5]

---

(١) سبق تخريجه ص (٦٦)

(٢)البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ (١/ ٣٢٩)

(٣) مباحث في علوم القرآن ـ مصطفى مسلم ـ (٨١)

(٤) الموسوعة القرآنية ـ إشراف وتقديم: محمود حمدي زقزوق ـ (٢٢٦)

(٥) أسرار ترتيب القرآن ـ للحافظ جلال الدين السيوطي ـ دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ـ (٤٤)

obeikandl.com

وقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم الشديد على حفظ القرآن الكريم، وكلٍّما يتعلق بشؤونه، وقد وقف أبو بكر رضي الله عنه مترددًا في قضية جمعه في مكان واحد، عندما اقترح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك بعد حروب الردة، خشية استشهاد القراء وضياع شيء مما كتب عليه، وكذلك كان تردد زيد بن ثابت عندما أسندت إليه المهمة، وكل منهما يقول: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكيف يتم ترتيب المصاحف باجتهاد عثمان بن عفان ومن معه، ولا يسمع صوت واحد يعترض عليهم في ذلك؟ اللهم إلا أن يكون عن علم منهم جميعًا.أن ترتيب السور في المصحف بهذا الشكل كان معلومًا للجميع أنه بتوقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ومنذ ذلك العصر والقرآن الكريم يتنقل من جيل إلى جيل، بصورة وحيدة فريدة متعارف عليها[2]، وجاءنا كما أنزل، لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف، ولم يطرأ عليه نقص ولا زيادة [3].

و بهذا كله يتبين رجحان القول بتوقيف ترتيب السور القرآنية في المصحف.

(١) مباحث في علوم القرآن ـ مصطفى مسلم ـ (٨١)

(٢) الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨١م ـ ١٠٣

(٣) من أسرار القرآن ـ علي محمد العماري ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ مصر ـ ط ١ ـ (٢٠٠١م) ـ (٢٠)

obeikandl.com